

الهوية الاجتماعية من خلال انثروبولوجيا الفضاء و المكان
حلباوي إبراهيم / رباحي مصطفى ، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 254-269



الهوية الاجتماعية من خلال انثروبولوجيا الفضاء و المكان

THE SOCIAL IDENTITY THROUGH SPACE AND PLACE ANTHROPOLOGY

مصطفى رباحي

جامعة غرداية، الجزائر

Mustapha Rabahi

rabahi.mustapha@univ-ghardaia.dz

إبراهيم حلباوي (*)

جامعة غرداية، الجزائر

مخبر استراتيجيات الوقاية و مكافحة المخدرات

الجلفة

Brahim Halbaoui

halbaoui.brahim@univ-ghardaia.dz

تاريخ النشر: 2022/03/31

تاريخ القبول: 2020/10/19

تاريخ الإيداع: 2020/08/07

الملخص:

تهدف هذه الدراسة الى التأكيد أن الفضاء الاجتماعي أكثر من مجرد جسد مادي، إنه انعكاس لثقافة ساكني الفضاء، فالتصميم و الاستغلال لهذا الفضاء لا يتم بفاعلية و نجاح إلا بحضور المجتمع من خلال هويته الاجتماعية و ذلك عبر فهم لانثروبولوجيا الفضاء و المكان، وأكدت نتائج دراستنا على أنه حتى و إن كان التصميم يلي الاحتياجات المادية للمكان بشكل عصري، كما هو حال نموذج "حي فريجي بيبسك" في جنوب غرب فرنسا و "قرية القرنة الجديدة" في جمهورية مصر إلا أن المجتمع سيعارض بطريقته، إما يغير أو يرفض استغلال هذا الفضاء، أما في نموذج "بني يزقن" في غرداية بالجزائر، أين يتطابق التصميم مع الهوية الاجتماعية، يصبح المجتمع ممتلكا للفضاء و متناغما معه.

الكلمات الدالة:

الهوية، الهوية الاجتماعية، انثروبولوجيا، انثروبولوجيا الفضاء و المكان، الثقافة.

(*) المؤلف المرسل



Abstract:

This study aims to confirm that the social space represents more than physical body; it reflects the resident's culture of space. The design and exploitation of this space cannot be done efficiently and successfully except with the presence of society through its social identity over an understanding of the anthropology of space and place; the study proved that even if the design meets the physical needs of the place Modernly, as the case of the "Frugés city in Pessac" in southwestern France and the "New Gournia village" in the Republic of Egypt, the society will oppose in its own way, either changing or refusing to exploit this space, but in the " Beni-Isguen" model in Ghardaia, Algeria Where design corresponds with social identity, society becomes the owner of space and live in harmony with it.

.Key Words:

Identity; Social Identity; Anthropology; Anthropology of space and place; Culture.

مقدمة:

يعتبر الانسان اجتماعيا بطبعه، ويسعى دائما للعيش داخل مجتمع يحميه و يمنحه الشعور بالذات الفردية و الذات الجماعية، ويندمج الفرد المنتمي إلى هذا المجتمع طوال فترات حياته المختلفة عن طريق التربية و التنشئة الاجتماعية، وهاتان العمليتان تضمنان لهذا الفرد تحضيره للحياة الاجتماعية لكي تتناغم مع خصائص مجتمعه الذي له هوية تميزه عن باقي المجتمعات و له ثقافة خاصة به تمنحه الشعور بالانتماء و الاعتزاز، وتبرز هذه الهوية الاجتماعية من خلال شكلها المعنوي كثقافة لامادية، وشكلها المادي الذي يعتبر فيه تصميم و شغل الفضاء و المكان الاجتماعي جزءا من التعبير عن هذه الهوية الاجتماعية التي تنطلق من الـ"نحن" كتعريف للذات الاجتماعية، وكذلك لحمل معان سوسيوثقافية و اقتصادية و سياسية... الخ ، وبما أن هذا المجال يدخل في نطاق مواضيع انثروبولوجيا الفضاء و المكان، فقد أردنا بدراستنا هذه أن نعرف مدى قدرتها في فهم علاقة الفضاء و المكان بالهوية الاجتماعية، أي الانطلاق من تحليل اطار الفضاء المبني -الأبعاد المادية من الهوية الاجتماعية- لتشكيل تصور حول الجزء اللامادي -الأبعاد الثقافية- للمجتمع، وهو ما جعلنا نفترض أنه



كلما زادت الروابط الاجتماعية و هامش تحكم المجتمع في الفضاء الاجتماعي من خلال التصميم و الاستغلال، كلما برزت أهمية أبعاد الهوية الاجتماعية في امتلاك المجتمع لهذا الفضاء و التناغم معه، ومن أجل التحقق من هذه الفرضية وجب علينا الاستعانة بأمثلة من الواقع سنتطرق الى ثلاثة منها هي: حي فريجي بـ"بيساك" في جنوب غرب فرنسا، "قرية القرنة الجديدة" في جمهورية مصر و مدينة "بني يزقن" في غرداية بالجزائر، وذلك لتوضيح مدى أهمية هامش تحكم المجتمع في تصميم و استغلال الفضاء، و نعتقد أن هذه الأمثلة الثلاثة تقرب لنا هذه النظرة في الجانب الميداني، والذي سنسبقه بجانب نظري حول المفهومين المتمثلين في الهوية الاجتماعية من جهة، و انثروبولوجيا الفضاء و المكان من جهة أخرى.

أولاً: الهوية الاجتماعية:

علم الاجتماع يتقاطع مع العديد من العلوم، حسب موضوع الدراسة و البحث، وهو حتماً يتقاطع مع علم النفس الاجتماعي في موضوع الهوية الاجتماعية، انها ظاهرة قديمة قدم وجود الانسان على الارض كفرد، و برزت بشكلها الاجتماعي مع اكتشاف الزراعة و تحضر الانسان، أي بعد تكون المجتمعات المستقرة جغرافياً، وهو مفهوم مركب من مصطلحين هما "الهوية" و "الاجتماعية"، أي أنه نوع من أنواع الهوية التي تتجاوز الفرد الى جماعته الاجتماعية، ثم نحو المجتمع في مستوى أعلى، كما أن المفهوم عرف تحولات كبيرة في ماهيته في علم الاجتماع و انتقل من التصور التجريدي النظري لعلماء الاجتماع الكلاسيكيين في أواخر القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين، نحو تصور تجريبي عملي في النصف الثاني من نفس القرن بفضل أعمال هنري تاجفيل و جون تيرنر التي تكللت بصياغة نظرية الهوية الاجتماعية، و سنعرض هذين التصورين كما يلي:

1 التصور التجريدي للهوية الاجتماعية:

من أوائل رواد علم الاجتماع الذين حاولوا تقديم تصور للمفهوم هو اميل دوركايم الذي يرى أنه "يوجد داخل كل فرد كائن جمعي يتمثل في انساق الأفكار و الأحاسيس و العادات و الرموز و القيم التي تعبّر عن شخصية الفرد، تعبّر عن الجماعة التي ينتمي إليها، لأن هذا الكائن



من مكونات النواة الاجتماعية للهوية. إنه يرى أن الجماعة تفكر وتسلك وتشعر بشكل مختلف تماماً عن أفرادها إذا كانوا منفردين. فالتجمع يؤدي إلى إنتاج كائن جديد هو الوعي الجمعي¹. أما ماكس فيبر فيرى أن للهوية مستويين هما: "المستوى الأول الصورة الكونية، أي جملة المعتقدات والمسلّمات الافتراضية عن العالم، والتي على ضوءها يمكن الوصول إلى إجابة شافية حول مغزى الوحدة وحقيقة الكون. والمستوى الثاني السياق التصوري وهو الذي تضع فيه الذات الجمعية نفسها ضمن تقسيمات العالم، انطلاقاً من النواحي الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وانطلاقاً من هذا الأخير ينظر للآخر المحدد الأساسي للهوية"².

إن انتماء الفرد وارتباطه بجماعته و مجتمعه الأصلي، وكذا اكتسابه للقيم والمعايير و الرموز والتصورات تكسبه الرأسمال الثقافي والاجتماعي الضروريين لتكوين الهابيتوس أو ما يسمى بالاستعدادات اللازمة التي توجه سلوكه نحو هوية جماعية واحدة، فالجماعة لها ذلك التأثير الرمزي على أفرادها، فتعمل على دمج الذات الفردية مع الذات الجماعية، بحيث يصبح الفرد جزءاً من الجماعة الاجتماعية التي ينتهي إليها ليكون فرداً واحداً من أفراد قبيلة أو طائفة معينة، أو تنظيم بيروقراطي أو حركة سياسية، أو بالمعنى الواسع إلى جماعة رسمية أو غير رسمية.

"وقد تكون مسألة الهويات الجمعية في غالب الأحوال مردودة إلى بعدها الثقافي، وبدون شك بكونها الأكثر استقراراً والأكثر جموداً. غير أنه يصعب أن نتكلم عن هويات بدون الرجوع إلى الهوية الشخصية، وتضم هذه في ذاتها هويات جمعية عديدة (الهوية الأسرية، المهنية، الاجتماعية، السياسية، الدينية، الثقافية...). والحال أن الهويات الجمعية إذا رُدت إلى الهوية الشخصية التي لا تكون منها إلا مثل مظاهر مختلفة، فإنها تفقد ظاهرها الثابت والجامد، لأن من حق كل فرد أن يقف فيما بينها، وأن يُسهم في إعطائها دلالة ومعنى وقيمة. وهكذا تبدو الهويات الجمعية كتصورات مستقلة لقيم نسبية وخاصة"³.

فالهوية الاجتماعية تشكل أيضاً عنصراً مهماً لعمليات الاندماج أو العزل الاجتماعيين ، مما يؤثر سلباً أو ايجاباً على الهوية الفردية واتجاهاتها من جماعة اجتماعية لآخري، ويؤدي إلى تقويتها أو اضعافها بصيغ وأشكال مختلفة، ثم إن الأفراد يتمتعون بشكل واعي أو غير واعي



بحرية الاختيار في مجال تحديد هوياتهم الاجتماعية عبر عملية الانتماء الاجتماعي، وهو الأمر الذي يسمح للفرد باستخدام العقل، حيث يمكن للشخص أن يتمتع بهويات اجتماعية متعددة في آن واحد.

إذاً، الهوية الاجتماعية هي لدى الفرد جزء من مفهوم الذات نابع من إدراكه ومعرفته ببعثيته في جماعة معينة، ومن اكتساب معان قيمية ووجدانية متعلقة بهذه البعثية. " كما أن الأفراد يشعرون ببعثيتهم في الجماعة عند إدراك أوجه الاختلاف بينهم كمجموعة وبين الأفراد الآخرين الذين يشكلون مجموعات أخرى. ترى هذه النظرة أن ميل الناس إلى تصنيف أنفسهم على أساس ديني أو عرقي أو ثقافي أو قومي... يظهر في المجتمعات والأيديولوجيات والثقافات التي تحدد الإدراك وتشكله بشكل جماعي. بمعنى آخر، هذا الميل هو انعكاس لسياقات ما بين الجماعات"⁴. أما بارو ميشال وزملائه فيرون أن الهوية الاجتماعية مفهوم متعدد المعاني، حيث تتجاوز الجانب اللغوي و التشريعي، إنها تجميع لسلسلة من المعاني التي تخص عمليات بناء الذات و عمليات المعرفة الخاصة بمجموع العلاقات الانسانية و الروابط الاجتماعية⁵. وهنا يظهر لنا أن مفهوم الهوية الاجتماعية لدى أغلب التعريفات السابقة يؤدي إلى ماهية تجريدية نظرية، تطورت مع الدراسات لتتبلور في تصور جديد هو التصور التجريبي.

2 التصور التجريبي الهوية الاجتماعية:

استطاع هنري تاجفيل و زملاؤه بعد قيامه بتجارهم الشهيرة لمعرفة آليات تشكل الهوية الاجتماعية بغرض إعطاء الهوية الاجتماعية تصورا جديدا تجريبيا، تعرف هذه التجارب بـ "تجارب المجموعة الأدنى".

"إن -نموذج المجموعة الأدنى- هو باراديغم تجريبي يتم من خلاله ضم الأفراد إلى المجموعات بشكل عشوائي، وبعد ذلك ينتظر منهم تخصيص حوافز لأعضاء مجموعتهم أو لمجموعة أخرى، النتيجة المدهشة لهذه الدراسات هي أن التحيز للمجموعة، تم استخلاصه في ظل هذه الظروف العشوائية، مما يوحي أن مجرد وضع الناس في مجموعات مختلفة، حتى تلك التي لا معنى لها، تؤدي إلى التمييز"⁶.



يقول عالم النفس الاجتماعي هنري تاجفيل و تيرنر (1919 - 1982) أن البشر يقومون بتصنيف أنفسهم والآخرين في مجموعات متعددة، وتصبح المجموعة التي ينتهي إليها الفرد جزءاً أصيلاً من هويته الاجتماعية حسب نوع الانتماء (ديني، عرقي، ثقافي، سياسي، رياضي... الخ)، وهذا التصنيف هو ما يتسبب في الانحياز لأفراد جماعة الانتماء من خلال التباين بين "نحن" و "هم".

مفهوم الشخص لذاته ينشأ من إنتمائه لجماعته حسب تاجفيل و تيرنر، إذ ليس للإنسان هوية واحدة بل هويات متعددة بتعدد المجموعات التي ينتهي لها، والفرد يتخذ سلوكاً مختلفاً في كل مجموعة حسب ما تتطلبه هذه المجموعة⁷. ويرى تاجفيل و تيرنر أن عملية بناء الهوية الاجتماعية تمر بثلاثة مراحل تتمثل في:

1- أ- التعريف: تشهد الحياة الاجتماعية للأفراد عملية التعريف بالانتماء لمجموعات اجتماعية بشكل مستمر، أي أن مجموعة من الأفراد الذين يرون أنفسهم كأعضاء في نفسه الفئة الاجتماعية عبر مشاركة بعض الانخراط العاطفي عبر تعريف مشترك لأنفسهم، والتوصل إلى درجة معينة من توافق الآراء حول تقييم مجموعتهم والانتماء إليها.

2- التصنيف: بعد عملية تصنيف الذات داخل الجماعة الاجتماعية، تبنى الهوية الاجتماعية داخل مجموعة الانتماء، وبالتالي يبدأ التماهي مع سلوك الجماعة طبقاً للقيم المشتركة التي تحملها كل مجموعة.

3- المقارنة: بعد عملية التصنيف ضمن مختلف المجموعات، والتماهي مع الهوية الاجتماعية لكل مجموعة تم تعريف و تصنيف الذات بالانتماء لها، تنطلق عملية المقارنة مع باقي المجموعات، وهذه المقارنة تفضيلية لمجموعة الانتماء تعبيراً عن رفعة الشأن والذات الفردية ضمن الذات الاجتماعية. هذا التفضيل يكون على إما بوضع مجموعة الانتماء في موقع أعلى من المجموعات الأخرى، أو بمحاولة التمييز السلبي ضد المجموعات الأخرى⁸. و ما يمكن استخلاصه من مفهوم الهوية الاجتماعية بشكل إجرائي، هو أنها تمثل مجموعة من السمات السوسيوثقافية، الدينية، الاثنية، السياسية والاقتصادية... الخ، منها ما هو ثابت ومنها ما هو قابل للتغيير على الصعيد الجماعي بشكل خاص، تجعل من أفراد المجتمع يتشاركونها وبالتالي



يتشاركون القيم التي تنتج عنها، وهي بالاساس ما يسهل العيش المشترك ضمن الفضاء الاجتماعي ماديا ورمزيا.

و ما يهمننا في دراستنا هذه هو هذا العيش المشترك داخل اطار الفضاء و المكان، وكيف يمكن عكس العملية، أي فهم الهوية الاجتماعية -بأبعادها و سماتها التي ذكرناها-، من خلال انثروبولوجيا الفضاء و المكان.

ثانيا: انثروبولوجيا الفضاء و المكان

ال انثروبولوجيا هي "علم دراسة الانسان، طبيعيا، اجتماعيا و حضاريا، والمصطلح منحوت من كلمتين يونانيتين (Anthropos) انسان و (Logos) علم، وتعبيران معا (علم الإنسان)⁹، ولا يزال مجال تخصصه يتوسع ليشمل جوانب أكثر دقة في هذين الجانبين، ومن بين التخصصات الحديثة نسبيا تظهر انثروبولوجيا الفضاء و المكان، وقد قام العديد من الباحثين من تخصصات مختلفة بالمساهمة في اثناء الرصيد العلمي في هذا التخصص كالمؤرخة الفرنسية فرانسواز شوي التي ألقت كتابا سنة 2007 بعنوان -من أجل انثروبولوجيا الفضاء Pour une Anthropologie de l'espace- الذي نالت به جائزة أحسن كتاب في تخصص العمارة لسنة 2007 في فرنسا¹⁰ وهو ما يدل على تقاطع التخصصات في هذا الفرع من فروع الانثروبولوجيا، وسنحاول عرض ماهيته و تطور المفهوم.

1 ماهية انثروبولوجيا الفضاء و المكان:

عند انجازنا لدراساتنا هذه، لاحظنا أن الأوروبيين يستعملون مفهوم -انثروبولوجيا الفضاء-، بينما الباحثون الأمريكيون فيميلون إلى استعمال -انثروبولوجيا الفضاء و المكان-، وفضلنا استخدام المفهوم الأمريكي لأنه يفصل بين الفضاء و المكان، وهو ما تبينه ماهية كل منهما على الشكل التالي:

الفضاء: "تشكيل بدائي يبني المدى التي يتحرك فيها جسمنا و ضمنه توضع الأشياء، ويحصر المكان و تحدد مساحة المكان خلاله، ويمنح حرية حركة الجسم و توقفه، ويسمح بنقل ومناولة الأشياء، كرسو في مكان ما"¹¹.



المكان: يختلف عن الفضاء بأنه " عبارة عن مساحة مؤطرة ذات معنى فرد أو مجموعة اجتماعية بمرور الوقت"¹².

و بذلك يتضح لنا أن المكان ما هو إلا جزء محدد و مساحة مؤطرة ضمن الفضاء، وبالتالي فالمجتمع يتعامل مع و ضمن الاثنين، فهو يستعمل الفضاء غير المؤطر كما أنه يؤطر جزءا منه ليحوّله الى مكان، و في الحالتين فان الانثروبولوجيا تتعامل مع الجانب الثقافي في هذه العلاقة. يعتبر علماء الأنثروبولوجيا أن الفضاء يحمل بعدا ثقافيا و اجتماعيا و جماليا يرتبط بشكل وثيق مع المجتمع ...و يعرف لدى الانثروبولوجيين على أنه "وسط ثقافي مهم، وهو مصطلح يمكن للأفراد من خلاله أن يفكروا ويمكن أن يكون ذلك بشكل منتظم ثقافيا لإنتاج الممارسات المكانية الاجتماعية والجمالية والسياسية، الدينية أو الاقتصادية. بمجرد دمجها، يمكن للمكونات المكانية جعلها تحمل معنى كجزء من نسق رمزي جغرافي"¹³.

يقدم إليو ساتي من جامعة فلورنس التعريف التالي: "انثروبولوجية الفضاء يمكن أن تعرف أنها التخصص الذي يجد أسسه النظرية في -الوضعية- التي يتخذها الانسان -تجاه- التنظيم الفضائي"¹⁴، فيما يرى جوزيب مونتاناو لا ثورنبرغ من الجامعة المتعددة التقنيات بكاتالونيا أنها " تدرس -تهتم ب- التصميم، الإنتاج و الاستخدام الاجتماعي للفضاء الانساني...و قد نشأ هذا التخصص من تراكب و تطابق تخصصات متعددة الثقافات"¹⁵، في حين أن بولين ماكيتزي أوكوين تقدم التعريف الأكثر حداثة من حيث التاريخ -سنة 2017-، والأقرب الى ربط انثروبولوجيا الفضاء و المكان بالهوية الاجتماعية عبر الثقافة، فتقول: "دراسات انثروبولوجيا الفضاء و المكان تعتبر أن المناظر الطبيعية، الفضاء و الإطار المبني، يمثلون مواقع مهمة للمعاني الثقافية، الاجتماعية و السياسية، الذاكرة و الخطاب العام، ويمكن استخدام الفضاء لحمل المعاني الاجتماعية المبنية ثقافيا و تاريخيا،...تنقل لغة الفضاء معاني الثقافة عن العالم، بينما المكان يحمل معها مشاعر التعلق و الهوية التي تنشأ من التجربة المعاشة"¹⁶.

و من خلال هذه التعريفات الموزعة زمنيا على العشريتين السابقتين، يمكننا أن نحدد مفهوما يقترب من تخصصنا في علم الاجتماع بشكل اجرائي يتمثل في كون انثروبولوجيا



الفضاء و المكان فرعا من فروع الأنثروبولوجيا العامة، يهتم بقراءة ثقافة و هوية مستعملي الفضاء على المستويين الفردي و الجماعي، انطلاقا من تفكيك الرموز المادية للبناء و العمران و من ثم ترجمتها لأبعاد الهوية الاجتماعية

2 مقارنة أنثروبولوجيا الفضاء و المكان لقراءة الهوية الاجتماعية

هناك العديد من المقاربات التي تستخدم في تحليل العمران من الناحية التقنية، نذكر منها المقاربة المرفولوجية، المورفولوجية التنميطية (تبيومورفولوجي)، المقاربة الحسية لكيفيين لينش...الخ، هذه المقاربات تقوم بتحليل الفضاء من الناحية التقنية، رغم أن مقارنة كيفيين لينش الموسومة بـ -المقاربة الحسية- تهتم بالجانب الحسي في التحليل و مدى ارتباط الناس بالمكان عبر حواسهم¹⁷، إلا أن معظم هذه المقاربات لا تعنى بالجانب الثقافي و الهوياتي بشكل مباشر. أما من الناحية الثقافية فيبدو أنه لا توجد مقارنة صريحة خاصة بأنثروبولوجيا الفضاء و المكان، قابلة للتطبيق، لكن يمكن استعمال مناهج تحليل العمران و تفكيك البنى الفضائية الى اجزاء يمكن من خلالها فهم أبعاد الهوية الاجتماعية عبر مؤشرات سوسيوقافية، وهو موضوع يبدو فيه المجال واسع للباحثين للاستفاضة فيه.

كما تجدر الإشارة الى أنه حتى العمران الفوضاوي هو تعبير عن الهوية الاجتماعية، فهو يعكس العديد من أبعادها، لاسيما الاقتصادية و الثقافية منها، وبالتالي فإنثروبولوجيا الفضاء موجودة في كل عمران بشري مهما كان نمطه.

ثالثا: الهوية الاجتماعية المجسدة في النماذج العمرانية الثلاثة:

للكتاب عن أنثروبولوجيا الفضاء و المكان و مكانة الهوية الاجتماعية أثناء تصميم و بناء و استغلال الفضاء من قبل الأفراد و المجتمعات، قمنا باختيار ثلاثة نماذج، نموذج اوروبي متمثل في حي فريجي في بيساك بفرنسا، نموذج عربي متمثل في قرية القرنة الجديدة بجمهورية مصر و أخيرا، نموذج جزائري يتمثل في بني يزقن في مدينة غرداية.

اختيارنا لهذه النماذج كان لعدة أسباب، أهمها، أنها تشترك في كونها على لائحة التراث العالمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية و العلوم و الثقافة يونيسكو -UNESCO-، مما يجعلها معروفة على نطاق واسع بالنسبة للباحثين و الدارسين من جهة، و توفر دراسات علمية متعددة



الاختصاصات يمكن الاعتماد عليها للقدرة على مناقشة تفاصيل عمليات تصميم، بناء و استغلال الفضاء الاجتماعي من عدة زوايا و تخصصات، بينما سنركز في دراستنا هذه على علاقة العمليات المذكورة بالهوية الاجتماعية و كيف يمكن قراءة هذه النماذج عبر انثروبولوجيا الفضاء و المكان.

1 حي فريجي بيساك (لوكوربيزييه)...عندما تتغلب الهوية تتغلب على العصرية:

سنة 1926 ، قام المعماري الشهير لوكوربيزييه بتصميم حي فريجي بيساك في ضواحي مدينة بوردو بطلب من أحد رجال صناعة السكر -هنري فريجي- الذي أراد تصميم قرية عصرية لعماله، في فترة كانت تنسم بالتوجه الكبير نحو عصرية البناء¹⁸ لكن مباشرة بعد سكن العمال في هذه المساكن الراقية قامو بتعديل المساحات و الفضاءات بشكل كبير جدا عن التصميم الأصلي، وهو ما طرح اشكالية كبيرة تتمثل في مدى تقبل مستعملي الفضاءات المبنية للعصرية خارج هويتهم الاجتماعية و كيف يمكن للاحتياجات المادية ضمن رفاهية المكان بمفهومها الحديث أن تغطي على الاحتياجات الثقافية و الهوية، وهي الاشكالية التي تعتبر الى يومنا هذا درسا أساسيا في العديد من معاهد الهندسة المعمارية و العمران كدلالة على فشل أي تصميم فضائي لا يحترم هوية ساكنيه و لا يستجيب لاحتياجاتهم الثقافية، كما أن العديد من الأكاديميين قاموا بتكريس أبحاث حول هذا المشروع "الدرس" كفيليب بودون الذي ألف كتابا بعنوان " بيساك دو لوكوربيزييهPessac de Le Corbusier" سنة 1969 قام بالتطرق خلاله الى مراحل التصميم و البناء و شغل الفضاءات، معرجا على التعديلات على المستويين المعماري و العمراني. و نقدها تقنيا و علميا.

يقول بودون "المعماري لوكوربيزييه بنى في بيساك بالقرب من بوردو حيا جديدا اسمه - دو فريجي- ماذا أراد الكوربيزييه؟، أراد جعله عصريا، الأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الاقتصادية و الاجتماعية، صنع مأوى قابل للسكن و قليل التكلفة، توفير فضاء يحوي الحياة اليومية للساكين، أي أنه ركز على الجانب العملي في تصميمه للفضاء، مدعوما بالمحددات التقنية.....لكن السكان قامو باجراء تعديلات كثيرة....ناتجة عن صراع حقيقي بين ما يريده المصمم و ردة فعل مستعمل المكان"¹⁹



و من خلال انثروبولوجيا المكان، يمكننا أن نقول أن تعديل المجتمع للفضاء هو من صميم الفعل الاجتماعي و الثقافي الذي ينبع من الهوية الاجتماعية للأفراد، فالتصميم العصري قد يلبي بعض الحاجيات المادية (كعدد الغرف و شغل المساحات الداخلية و الخارجية) لكنه لا يلبي بالضرورة حاجياتهم الثقافية، ومحاولة جعل تصميم الفضاء بنمط معياري لأسباب عملية يصطدم في هذا النموذج بالخصوصية الثقافية والهوياتية للأفراد و الجماعات الاجتماعية، وهذه المعيارية النمطية نعتقد -كما يعتقد العديد من الباحثين حول هذا النموذج- أنها السبب الرئيسي في افشال فكرة التصميم الفضائي الخارج عن نطاق الهوية الاجتماعية.و يمكننا أن نستخلص من نموذج حي فريجي بيساك، أن فرض تصميم من طرف خارجي بمعزل عن المجتمع عبر فرض الحلول التقنية و العملية فقط، دون الأخذ بعين الاعتبار الحلول الثقافية و الهوياتية يؤدي بالنهاية الى نتائج مشابهة ل حي فريجي بيساك، بمعنى أن المجتمع و الأفراد يعيدون تهيئة فضاءاتهم لإعادة امتلاكه بما يتناسب مع ثقافتهم و هويتهم الاجتماعية.

2 قرية القرنة الجديدة بمصر...التصميم التقليدي المرفوض:

جاء في الموقع الرسمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية و العلوم و الثقافة حول القرنة الجديدة ما يلي: " تم إنشاء قرية القرنة الجديدة لترحيل سكان القرنة القديمة الذين عاشوا فوق المدافن في مقبرة اثرية قديمة والذين اعتبر نقلهم حلاً لتقليل الأضرار التي لحقت بالمقابر الفرعونية. تتمثل الخصائص الرئيسية في إعادة تفسيرها لبيئة حضرية ومعمارية تقليدية، واستخدامها المناسب للمواد والتقنيات المحلية، فضلاً عن تجاوزها مع المشكلات المناخية...لهذا السبب، فهو مثال بارز على الاستيطان البشري المستدام والاستخدام المناسب للتكنولوجيا في الهندسة المعمارية والتخطيط. تم الكشف عنها في أحد أهم المراجع المعمارية والتخطيطية، في كتاب البناء مع الشعب: تجربة في الريف المصري بواسطة حسن فتحي²⁰.

و بالرغم من أن مصمم الفضاء حاول التماهي مع الهوية الاجتماعية للمجتمع المحلي إلا أن قرية الجديدة صارت غير مأهولة كذلك، حيث أنه: "لأسباب سياسية و اقتصادية، اضافة إلى رفض ساكنة القرنة القديمة للموقع و للنمط المعماري الجديد، لم يكتمل بناء القرنة



الجديدة. جزء فقط من مخطط فتحي تم إنجازه، ومن ضمن 900 عائلة معنية باعادة الاسكان، 130 عائلة فقط تم ترحيلها للقرنة الجديدة"²¹، وهو ما يجعلنا نعتقد أن تصميم الفضاء الاجتماعي يجب أن يراعي كذلك المتغيرات السوسيوثقافية التي تطرأ على المجتمع، فالهوية الاجتماعية كما عرضناها في نظرية هنري تاجفيل و جون تيرنر، هي هوية غير جامدة، بل متحركة و متغيرة باستمرار و تتفاعل مع المتغيرات السوسيوثقافية، وهو ما يجعل من المجتمع أحيانا ينسحب من الفضاء الموسوم بالهوية الاجتماعية التقليدية نحو فضاءات تستجيب لمطالبات ثقافية مستجدة، هذه الأخيرة أدت الى هجران السكان للقرية بعكس سكان حي فريجي ببسك الذين بقوا فيها مع تعديل الفضاءات.

إن النموذجين السابقين وبالرغم من كون مصممي الفضاء-لوكوربيزييه و حسن فتحي- مهندسان معماريان عالميان، يحضيان باعتراف دولي لأعمالهما، وبالرغم من أن حي فريجي ببسك و قرية القرنة الجديدة مصنفة كتراث عالمي، إلا أن كلا التجربتين اصطدمتا بالرفض الاجتماعي، حيث أن المجتمع لم يجد التناغم مع الفضاء المخصص له لعدم تطابقة مع أبعاد الهوية الاجتماعية، وهو بالضبط ما أردنا أن نبينه في هذه الدراسة، ويبقى تقديم النموذج الثالث المتمثل في:

3 مدينة بني يزقن...فضاء صممه المجتمع:

مدينة بني يزقن تمثل واحدة من ضمن مدن البنتابوليس المزاب بغرداية، أي جزء من خمسة مدن مجتمعة و هي: غرداية، مليكة، بونورة، العطف و بني يزقن، واطافة الى مدينتين منفصلتين هما القرارة و بريان، يشكل المجموع مدن مزاب السبعة. جاء في موقع اليونيسكو عنها ما يلي: "يبدو منظر وادي مزاب الذي تأسس في القرن العاشر على يد الإباذيين حول قصورهم الخمس أو قراهم المحصنة وكأنه لا يزال على حاله. وقد صُمِّمت الهندسة المعمارية لمزاب لتكون بسيطة وعملية ومتكيفة تماماً مع البيئة من حولها، للعيش في الجماعة مع احترام البنى العائلية، إنها مصدروحي للباحثين في العمران و التنظيم المدني اليوم.

تقع على بعد 600 كيلومتر جنوب مدينة الجزائر العاصمة، في قلب الصحراء الكبرى ، تشكل القصور الخمس (القرى المحصنة) في وادي مزاب مجموعة متجانسة بطريقة فريدة من نوعها،



تشكل علامة حضارية في الصحراء، مستقرة، حضرية وتحمل ثقافة أصلية عرفت بعبقريتها الخاصة و بأنها تحافظ على تماسكها عبر القرون، ويتكون التصميم الفضائي من بساتين القصور والنخيل في كل من العطف، بونورة، مليكة، غرداية، وبني يزقن (التي تأسست بين عامي 1012 و 1350)²²

و مدينة بني يزقن تعتبر اليوم واحدة من بين أهم المعالم السياحية الثقافية في الجزائر، انها مدينة تاريخية "نواها قصر تفلالت، اتخذت اسم بني يزقن، عام 720هـ/1321م، عندما انضم إلى تفلالت سكان القرى المجاورة لها"²³، و بمجرد زيارة المدينة بإمكان الباحثين في الانثروبولوجيا عموما، وانثروبولوجيا الفضاء و المكان خصوصا، ملاحظة التناغم الكبير بين المجتمع المزاي و بين المدينة التي تبدو وكأنها لم تتغير عبر القرون و حافظت على هويتها وهوية ساكنها، و نعتقد أن التماهي مع المتغيرات السوسيوثقافية سمح للهوية الاجتماعية المزابية و للمدينة باكتساب القدرة على الصمود عبر الزمن، فالمدينة شهدت توسعا عمرانيا نتيجة الزيادة الديموغرافية الطبيعية حيث "شهد القصر عدة توسيعات، حدثت آخرها في القرن التاسع عشر يبلغ طول السور الحالي الذي شيد بين 1860 و 1868، 2500 مترا و ارتفاعه حوالي ثلاثة أمتار، تتخلله خمسة أبواب، اثنان منها ثانويان كانا لا يفتحان إلا في مناسبات خاصة،... بلدة بني يزقن تتألف حاليا من القصر الذي يحيط به السور، ومن الأحياء الجديدة"²⁴، وبالتالي فإن هذا التماهي جانب المدينة و الهوية الاجتماعية لساكنتها من الاحتمالين الباقيين وهما إما الزوال بالاستسلام كليا لمتطلبات العصرية ضمن ثقافة العولمة، أو المقاومة ورفض المستجدات السوسيوثقافية وفي النهاية كذلك تؤدي الى العزلة ثم الزوال. "تم تصنيف مدينة بني يزقن وبقية وادي مزاب كمواقع للتراث العالمي من قبل منظمة الامم المتحدة للتربية و الثقافة و العلوم اليونسكو منذ عام 1982م. من بين القطاعات المحمية، حافظ قصر بني يزقن منذ تأسيسه على نموذج التنظيبي، ولا سيما السور الذي يحده من الداخل زقاق ويحتوي على أبراج مراقبة. تقدم بني يزقن خطة هرمية، ويتم تنظيم تخطيطها المركزي حول المسجد ومئذنته. أهم ما يميز المدينة هو برج بوليلة. لها بابان رئيسيان يقعان في الشمال والجنوب: باب شرقي وباب غربي وثلاث بوابات أخرى تؤدي إلى المقابر المختلفة"²⁵، كما



يجدر الذكر أن العديد من مدن مزاب فقدت كلياً أو جزئياً أسوارها وتدهورت حالة بعض معالمها نتيجة للتوسع العمراني و نتيجة تلاشي وظيفتها الأمنية. المدينة الوحيدة التي حافظت على سورها كاملاً و معالمها و منظر مكتمل للمثدنة من أغلب الجهات هي بني يزقن²⁶. هذا التنظيم الفضائي كان عامياً و كان المصمم هو المجتمع المزابي ذاته، وبالتالي فإن مبادئ التصميم لم تكن سوى انعكاس لأبعاد الهوية الاجتماعية. وهذا ما يفسر صمود بني يزقن لقرون من الزمن، و مازالت الى يومنا هذا نموذجاً على تناغم الهوية الاجتماعية مع انثروبولوجيا الفضاء و المكان عبر تطابق احتياجات المجتمع الفضائية المكانية و الثقافية مع ما تم تصميمه و بناؤه و استغلاله، وهو ما دفع العديد من الباحثين من شتى التخصصات الى دراسة مدن مزاب عموماً و استخلاص الدروس منها.

خاتمة:

في نهاية دراستنا هذه يمكننا أن نقول أن الهوية الاجتماعية ترتبط بالفضاء و المكان بشكل وثيق و يمكن إبراز ذلك و قرائته عبر انثروبولوجيا الفضاء و المكان، وهو ما تبينه الأمثلة التي تناولتها هذه الدراسة. حيث أن الانسان يصمم الفضاء و يبنيه و يستعمله تبعاً لأبعاد هويته الاجتماعية كما هو حال مدينة بني يزقن في غرداية، وإن فرض عليه فضاء لا يتناسب معها فهو إما أن يقوم بالتغييرات التي تجعله كذلك كما هو حال حي فريجي بيساك بفرنسا، وإما يرفض أن يكون مستعملاً لهذا الفضاء بشكل كلي و هي حالة قرية القرنة الجديدة في جمهورية مصر، ومن خلال دراستنا هذه يمكننا أن نضع بعض التوصيات للباحثين الأكاديميين حول هذا الموضوع على شكل مداخل لدراسات مستقبلية. تكون حول دور انثروبولوجيا الفضاء و المكان في مشاريع إعادة الاسكان، وتؤكد على أهمية إدراج أبعاد الهوية الاجتماعية في تصميم الفضاء بشكله الفردي -سكنات- و في شكله الاجتماعي - العمران-، كما يمكن إدراج منهجية انثروبولوجيا الفضاء و المكان في عمليات إعادة اعمار قرى و مدن كبيرة في مناطق تشهد تغيرات كبيرة بسبب الأزمات المختلفة، مع تحديد مقارنة في انثروبولوجيا الفضاء و المكان خاصة بقراءة الهوية الاجتماعية.

الهوية الاجتماعية من خلال انثروبولوجيا الفضاء و المكان
حلباوي إبراهيم / رياحي مصطفى ، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 254-269



الهوامش

- ¹ عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص 42.
- ² مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة، القاهرة، 1979، ص 461.
- ³ العظيمة عزيز ، الهوية مفاهيم عالمية من اجل حوار بين الثقافات، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص 45.
- ⁴ عزام أمين، التكيف الاجتماعي والهوية العرقية لدى الشباب من أصول عربية مغربية في فرنسا، مجلة عمران، العدد 4/14، 2015، ص 06.
- ⁵ Baru Michel et autres, **Vocabulaire de psychosociologie, Références de positions**, Edition Erès, Paris, 2002, p 01.
- ⁶ Robert Kurzban, **Minimal Group Experiments**, UCLA, Los Angeles, 2006, p 01.
- ⁷ Henri Tajfel & John C. Turner, **The Social Identity Theory of Intergroup Behavior**, Worchel, S. and Austin, W.G Eds, Hall Publishers, Chicago, 1986, p 277.
- ⁸ Laurent Licata, **La théorie de l'identité sociale et la théorie de l'auto-catégorisation : le Soi, le groupe et le changement social**, Revue électronique de Psychologie Sociale, n°1, 2007, p 24.
- ⁹ مصطفى شاكر، قاموس الانثروبولوجيا انكليزي-عربي، ط 1، جامعة الكويت، 1981، ص 56.
- ¹⁰ <https://www.batiactu.com/edito/prix-livre-architecture-2007-francoise-choay-7916.php>
اطلع عليه بتاريخ: 202/08/07
- ¹¹ Pierre Pellegrino and Emmanuelle p. Jeanneret, **Meaning of space and architecture of place**, Semiotica 175–1/4, 2009, p 269.
- ¹² Thornton and Thomas F, **Being and Place Among the Tlingit**, University of Washington Press, Seattle, 2008, p 10.
- ¹³ Pauline McKenzie Aucoin, **Toward an Anthropological Understanding of Space and Place**, Place, Space and Hermeneutics, Contributions to Hermeneutics 5, Springer, 2017, p396.
- ¹⁴ Elio Satti, **Anthropologie de l'espace contenus et méthode de la discipline**, Architectonics, Mind, Land & society, Josep Muntàñola Thornberg et Danielle Provansal eds, Universitat Politècnica de Catalunya. Iniciativa Digital Politècnica, 2004, p 120.



الهوية الاجتماعية من خلال انثروبولوجيا الفضاء و المكان
حلباوي إبراهيم / رياحي مصطفى ، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 254-269

¹⁵ Josep Muntanola Thornberg, **La topogénèse: l'anthropologie de l'espace et l'architecture de l'espace humain**, Architectonics, Mind, Land & society, Josep Muntanola Thornberg et Danielle Provansal eds, Universitat Politècnica de Catalunya. Iniciativa Digital Politècnica, 2004, p80.

¹⁶ Pauline McKenzie Aucoin, **previous resource**, p 395

¹⁷ عبير الشاطر و هشام ابوسعدة، فن وعلم بناء عمارة وعُمران المدائن الحضرية التصميم الحضري، مجلة الامارات للبحوث الهندسية 18، العين-الامارات العربية المتحدة، 2013، ص 04.

¹⁸ <https://www.pessac.fr/a-decouvrir/tourisme-patrimoine/cite-fruges-le-corbusier-539.html>

اطلع عليه بتاريخ: 2020/08/07

¹⁹ Philippe Boudon, **PESSAC de Le Corbusier**, edition DUNOD, Paris, 1969, pIX-2.

²⁰ <https://whc.unesco.org/en/activities/637> اطلع عليه بتاريخ: 2020/08/07

²¹ K G Ahmed and Lamis S Elgizawi, **Two versions of 'New Gournā' and the dilemma of sustainability in new urban communities in Egypt**, Sustainable Development and Planning IV, Vol. 2, 2009, p 691.

²² <https://whc.unesco.org/en/list/188/> اطلع عليه بتاريخ: 2020/08/07

²³ ابراهيم بن موسى حريزي، الحضارة العمرانية في وادي ميزاب، مباني ومعاني و هندسة معمارية بدون مهندسين، العالمية للطباعة و الخدمات، البليدة، 2016، ص 06.

²⁴ المرجع نفسه، ص 07.

²⁵ <https://whc.unesco.org/en/list/188/> اطلع عليه بتاريخ: 2020/08/07

²⁶ Ammar Bouchaira and Albert Dupagneb, **Building traditions of Mزاب facing the challenges of re-shaping of its built form and society**, Building and Environment 38, 2003, p 1352.